تشكيلات الهوية و أبعادها الدلالية في قصيدة – لاعب نرد- لمحمود درويش

Forms of identity and its semantic dimensions in the poem – Laaib E Nard - Dice Player - by Mahmoud Darwish

ط د- صليحة بوترعة[1]، د- كمال بن عمر[2]

1 جامعة الوادي (الجزائر) bouteraa-saliha@univ-eloued.dz

2 جامعة الوادي(الجزائر) benamor-kamal@univ-eloued.dz,

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده جامعة الشهيد حمه لخضر الواد

تاريخ الإيداع: 2021/09/01 **تاريخ المراجعة**: 2021/10/15 **تاريخ النشر**: 2022/06/15

ملخص:

يعدّ سؤال الهوية سؤالا جوهريا ارتبط بالفترة الكولونيالية وما بعدها، ومع تنامي الوعي العربي وبروز الفكر النّهضوي، وبحث الذّات العربية عن أناها في ظل الاستلاب والانحدار الحضاري، راهن الأدب العربي على استدعاء قضية "الهويّة"، وفي هذا السّياق تسعى هذه الورقة البحثية الى مقاربة قصيدة "لاعب نرد" للشّاعر الفلسطيني "محمود درويش" قصد مكاشفة تشكيلات الهويّة وأهم تمظهراتها ورصد أهم أبعادها الدّلالية.

الكلمات المفتاحية: الهويّة، الأنا، الآخر، التّشكيلات، الذّات، التّمثيلات.

Abstract

The question of identity is a fundamental question which has been associated with the colonial period and its aftermath, with the growth of Arab awareness and the emergence of renaissance thought, and the Arab self's search for its ego in light of alienation and civilized decline. " Laaib E Nard " by the Palestinian poet "Mahmoud Darwish" intended to reveal the formations of identity and its most important manifestations and to monitor its most important semantic dimensions.

***Key words**: Identity, ego, otherness, formations, self, representation*

تقديم:

تعدّ الهويّة من الموضوعات الكبيرة التي تطرح أسئلتها وتسوّغ إشكالياتها باستمرار ليظلّ المفهوم – مفهوم الهويّة – مفهوما مركزيا يثير الفكر الإنساني منذ فجره؛ فبمجرد إدراك الإنسان لوجوده ووعيه بتميزه عن الآخر انبثق سؤال الهويّة الذي شغل المفكرين والفلاسفة والأدباء و النّقاد وليس المنجز الإبداعي العربي – والحال هذه – بمنأى عن هذا السّؤال إذ غدت تيمة الهويّة تيمة مائزة في النّص الإبداعي العربي؛ ولعل النّص الشّعري الدّرويشي هو البيان التّوثيقي للهويّة وذلك لارتباط التّجربة الشعرية لهذا الأخير ارتباطا وثيقا بالهوية العربية الغائرة والتي يحاول الآخر استلابها. وانطلاقا من ذلك اصطفت هذه المقاربة قصيدة "لاعب نرد" للشّاعر الفلسطيني " محمود درويش* "

*المؤلف المراسل.

متوسلة المنهج الوصفي التحليلي والأسلوبي محاولة الإجابة عن الإشكالية الآتية: كيف أعاد درويش تشكيل الهويّة في قصيدته "لاعب نرد"؟ وماهي أهم تمظهرات الهويّة في القصيدة؟ وما هي أبعادها الدّلالية التي توّخاها "درويش " في خطابه؟

أولا-إضاءات ومفاهيم نظرية:

إنّ مفهوم الهويّة:"لا يزال يستفزّ بحضوره وملفوظه أنظمة العقل التي ألفت الآداتية والحسابية والتّقنين والنّهائية"[1]؛ فالهويّة تخضع لطبيعة السّؤال نفسه وطبيعة المعايير المؤثرة فيه مما يجعل المفهوم عصيّا على التّحديد؛ فهو – والحال هذه – ينحصر بين ثنائية الوجود والكينونة من جهة وبين ثنائية الأنا (الذّات)والآخر(الهو) من جهة أخرى. وفي هذا السّياق سنعرض لأهم التّحديدات النّظرية للمصطلحات الآتية: الهويّة / الأنا / الآخر.

1-مفهوم الهويّة:

جاء في معجم لسان العرب أنّ: "الهويّة تصغير هوّة، وقيل الهويّة بئر بعيدة المهواة"[2]؛ فدلالة الهويّة عند ابن منظور اقترنت بالموقع والمكان. ويذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ "الهويّة الحقيقيّة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النّواة على الشّجرة في الغيب المطلق"[3]، يبدو أنّ التّعريف الأخير للهويّة أشمل من التّعريف الأول؛ إذ يشير إلى السّمات التي تكون الشّجرة من النّواة. وهي دلالة ضمنية على الخصائص المشتركة بين مجموعة النّوع الواحد مما يحقّق شرعية الانتماء الذي هو شرط من شروط اكتساب الهويّة؛ غير أن المتتبّع لمسار الهويّة بوصفها مفهوما تجريديا يدرك أنّها مفهوم انبثق في ظل وعي الإنسان بوجوده واختلافه عن الآخر وهو ما يؤكّده أرسطو في تعريفه للهويّة بـ "أنّها حقيقة الشّيء من حيث تميّزه عن غيره، وتسمى أيضا وحدة الذّات"[4] ويعدّ تعريف أرسطو قاعدة عامة مجرّدة في مفهوم الهويّة أيّدها فريق من المفكرين فيم خالفها فريق آخر، ولكلّ حججه وأدلّته سواء في التّأييد أو في المخالفة. أما المفكر العربي محمد عابد الجابري فيرى أن الهويّة مفهوم دينامي دائم التّحول والتّغيير؛ فهي "وجود وماهية والماهية ليست معطى نهائي، بل هي شيء يتشكّل، شيءيصير"[5]. فالهويّة حسب الجابري مفهوم متحرّك يتجاوز السّكون ويوافق سنن التّحول والتّغيير التّي يفرضها عليه الوجود في خضمّ المعطيات المتجدّدة سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو نفسية أو عقدية. وفي علم الاجتماع ارتبطت الهويّة ارتباطا وثيقا بالعناصر الثّابتة في المجتمع والتي لا يتحقق المجتمع من دونها. وتجدر الإشارة إلى أن المعيار الذي يحدد هويّة الفرد يختلف من مجتمع إلى آخر؛ ذلك أن "الهويّة دائما جماع ثلاثة عناصر: العقيدة الّتي توفر رؤية الوجود، واللّسان الذي يجري التّعبير به والتّراث الّثقافي الطّويل المدى"[6]؛ فالدّين واللّغة والتّراث القديم كلّها عناصر أساسية تسهم في بلورة الهويّة الاجتماعية لأيّ مجتمع من المجتمعات.

2-مفهوم الأنا:

يستدعي البحث في مفهوم الأنا وجوبا ثنائية(الأنا / الذات) التي تقابلها ثنائية(الآخر / الغير)، فما هي الأنا؟ ورد في لسان العرب أنّ "أنا" هي "اسم مكنّى، وهو للمتكلّم وحده، وإنمّا يبنى على الفتح فرقا بينه وبين "أنّ" التي هي حرف ناصب للفعل، والألف الأخيرة إنّما هي لبيان الحركة في الوقف"[7] ووردت لفظة أنا في المعجم الوسيط بمعنى "ضمير رفع منفصل للمتكلّم أو المتكلّمة"[8]؛ فالأنا دال على الشّخص سواء أكان ذكرا أو أنثى. وإذا

تخطينا الحدّ اللّغوي إلى الحدّ الاصطلاحي نجد أنّ الأنا هو "مصطلح مراوغ يستعصي على التّعريف والحد الاصطلاحي، لأنّه يدخل في مشاركة كبيرة في أغلب الفروع الإنسانية: كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلوم العربية"[9] فيتشبّع بمعطيات كل العلوم مما يزيده اتساعا وصعوبة على التّحديد.

ولا يخفى أنّ الأنا كل مركّب فهي الذّات وما تحمله من مظاهر وخصائص ثقافية أو نفسية أو إيديولوجية وما تشتمل عليه من أفكار وآمال وطموحات وصراعات وتوتّرات؛ إلاّ أنّ "الشّعور بالأنا لدينا لا يبرز دون أن يكون مصحوبا بذوات الآخرين"[10]؛ فمن شروط معرفة الأنا لنفسها أو لغيرها ضرورة حضور الآخر لأنّه"حضور يتّحد فيه شعور الذّات بذاتها وتزداد رغبتها في الاكتمال عبر الامتزاج به أو بما يرمز إليه"[11].

3-مفهوم الآخر:

ورد عن ابن منظور في لسان العرب أن الآخر هو:"أحد الشّيئين وهو اسم على وزن أفعل.... والآخر بمعنى غير، كقولك رجل آخر وثوب آخر وأصله أفعل من التّأخر، وتصغير آخر أو يخر، وفي قوله تعالى: "فآخران يقومان مقامهما" سورة المائدة 107، فسّره الفراء فقال: معناه آخران من غير دينكم من النّصارى واليهود والجمع بالواو والنّون، وأخريات وآخر. وحكى بعضهم أبعد الله الآخر، ويقال: لا مرحبا بالآخر، أي الأبعد"[12]، يكاد يتّفق مع المفهوم السّابق ما ورد في معجم الوسيط: "فالآخر، تأخّر، والشّيء جعله بعد موضوع الميعاد أجّله (تأخّر)عنه جاء بعده، وتقهقر عنه ولم يصل إليه، والآخر أحد الشّيئين ويكونان من جنس واحد"[13].وفي ذات السياق يعرّف صلاح صالح الآخر بقوله: "الكلّية المزدوجة الذّاتية في علاقة الذّات بالذّات ولا تنتهي إلا بانتهاء الوجود البشري في الزّمان والمكان، فالفرد يمكن أن يكون آخرا حتى بالنسبة لنفسه وكل شخص هو آخر بالنسبة لأي شخص على وجه الأرض"[14].

ومن ثمّة يمكننا أن نحدّد الآخر على مستوى علاقتين؛ إذ تتحدّد العلاقة الأولى بالذّات وذاتها، أمّا العلاقة الثّانية فتتمثّل في علاقة الذّات بغيرها، والجدير بالذّكر هو أنّ هاتين العلاقتين تستمران وترتبطان بالوجود البشري وتتواصلان فيه وتنقطعان بانقطاعه.

ثانيا: تشكيلات الهويّة في قصيدة "لاعب نرد":

يعدّ النّص الأدبي سواء كان نثرا أو شعرا نصّا لغويا – أوّلا وأخيرا – فهو دائما يعمد إلى تشغيل إمكانات اللّغة الواسعة في اكتساب خصوصياته وإبدالاته التي تتيح له التّفرد عن باقي النصوص، وفي عملية الإبداع يعمد المبدع إلى استثمار وظيفة الخلق الدّلالي أو التّوالد الدّلالي الّذي هو ابتكار لترابطات لغوية جديدة بين دوال متفرقة – ليس بينها في الأصل علائق– وتجدر الإشارة إلى أنّ اللّغة وسيلة مرنة تسمح بإعادة تشكيل المفاهيم وضبط التّصورات؛ ولعلّ هذا ما دأب عليه الشّاعر الفلسطيني " محمود درويش " في تجربته الشّعرية التي تعالقت بسؤال الهويّة الذي ظلّ بؤرة الخطاب الشّعري الدّرويشي؛ ففي نصّه " لاعب نرد " مارس الشّاعر لعبة التّشكيل التي مكّنته منها خاصية المرونة اللّغوية مما أتاح له إعادة صوغ وتمثيل وتركيب وموضعة مفهوم الهويّة وفقا للأبعاد الدّلالية الثّاوية بين تلافيف الخطاب الذي يستدعي متلقيا حصيفا يدرك مرامي الشّاعر وفقا لما تقتضيه تجربته الشّعرية التي تكاد تتماهى ومفهوم الهويّة وما تستحضره من ثنائيات ضديّة تقابلية ممثلة في (الأنا/ الآخر)و (الذّات/ الغير).

1-تشكيلات الهويّة بين اللاّصدفة والصّدفة:

في قصيدة "لاعب نرد" ينفتح المخيال الشّعري للشّاعر محمود درويش بسؤال استهلالي يثير في القارئ الرّغبة في تعرية شفرات الخطاب الّتي يرسلها الشّاعر عبر أوعية نصّه، فيقول[15]:

"من أنا؟ لأقول لكم

ما أقول لكم"

تتكرر هذه اللّازمة في القصيدة، ويتكرّر معها السّؤال المركزي الذي حرّك مدارات النّص وكشف وللوهلة الأولى طبيعة الخطاب الذي بثّه درويش في متلقيه حيث يتساءل: من أنا؟ ثمّ يطوّع هذا التّركيب الاستفهامي المركب من آداة الاستفهام " من " والضّمير " أنا ليبعث في قارئه البحث عن الإجابة، فمن هي الأنا التي يسأل عنها الشّاعر؟ إنها -بلا ريب -أناه وهي لا تتحدّد إلا بحضور " الآخر " وهو ما يجعل المتلقي يتساءل بدوره عن هذا "الآخر".

إنّ" الأنا "المفقودة التي يبحث عنها الشّاعر هي أنا الإنسان وذاته الحيّة الّتي تشعر بوجودها؛ فالإنسان بوصفه روحا ومادّة له ذات تجسّدها هويّته باعتباره كائنا موجودا؛ إذ يحقق له هذا الوجود معنى الحياة التي هي ضد الموت والفناء، ويترتّب عن ذلك ضرورة إقحام الذّات/ الأنا في الزمن والمكان لأنّهما شرطان أساسيان لتحقيق الوجود، وبسوق مفهوم الأنا تلحّ هذه الدّوال:(الذّات، الهويّة، الوجود، الحياة، الموت، المكان، الزمان)على نسيج النّص لتبقى الهويّة الهاجس الدائم للشّاعر.

ومن ثمة يطبق درويش فكّي سؤاله ليحاصر ذهن المتلقي ويرغمه على التفكير في ثنائية الأنا والآخر التي يرومها؛ إذ تتكرّر تيمة "الأنا" من جديد فتغدو بذلك محورا يثير وهج النّص فيقول[16]:

و أنا لم أكن حجرا صقلته المياه

فأصبح وجها

ولا قصبا ثقبته الرياح

فأصبح نايا.

في المقطع السّابق ينفي الشّاعر عن ذاته هويّة "الحجر" الذي صقلته المياه فتحول إلى "وجه"، كما ينفي عن ذاته هويّة "القصب" الّذي حوّلته الرّيح إلى "ناي"، لقد أقام الشّاعر علاقة الرّبط بين "الحجر والوجه" وبين "القصب والنّاي" وجرّد ذاته من ذلك الرّبط وهو بهذا الفعل إنّما ينفي عن "أناه" الصّدفة والعبثيّة؛"فالحجر والقصب" عناصر طبيعيّة أتاحت لها الصّدفة تغيير هويّتها ولا يمكن للصّدفة أن تحدث نفس الشّيء مع هويّة الشّاعر لأنّ" الحجر والقصب" جمادان ولا يمكن لهويّة الجماد أن تعادل هويّة الإنسان فبين الصّدفة واللاصدفة تتموقع أنا درويش وهاهو ذا يجسّدها في شخص لاعب النّرد فيقول[17]:

أنا لاعب النرد

أربح حينا وأخسر حينا

أنا مثلكم

أو أقل منكم قليلا

في هذه الأبيات يعرّي الشّاعر "أناه" ويلبس هويّة "لاعب النّرد" هذا الّذي يخضع للصّدفة في ربحه أو خسرانه؛ فمن لا صدفة "الحجر والنّاي "إلى صدفة "لاعب النّرد" تراوح أنا الشّاعر مكانها ثم يعقد قرينة التّشابه

فيقول: أنا مثلكم، ليدلّل على التّماهي والانتماء إلى المجموعة الواحدة، ولكنّ أناه تتراجع فيحسّ أنّه أقلّ من المجموعة لأنّ المجموعة أكبر من الأنا المتفرّدة المنكسرة.

ويكتنف سؤال الشّاعر غموضا يحير المتلقي؛ فأناه وهويّته بين مصراعي اللاصدفة حينا والصدفة حينا آخرا ولا يزال هذا الآخر-الذي يحقّق توازنا لمفهوم الهويّة والأنا-مضمرا فدوال القصيدة لا تزال تحجب مدلوله الذي سيحضر قسريّا في ذهن القارئ وبذلك تنحصر وظيفة درويش في البحث عن "الأنا والهوية" وتوكل مهمة إيجاد "الآخر والغير" للمتلقي لتحقيق طرفي الثّنائية التي تميز خطاب الهويّة في الفكر العربي وفي الفكر الإنساني بعمومه وجمعه.

2-العناصر الثّبوتية للهويّة:

تتركّب هويّة الفرد من عناصر ثابتة مميزة له ولا يمكنه -بأية حال-أن ينعزل عنها أو يتجرّد منها، هذه العناصر قدمها درويش في شكل بطاقة تعريفية –إن صحّ التّعبير – وهو من خلالها يكشف عن سمات هويته: ولادته، اسمه، عائلته... فيقول:[18]

ولدت إلى جانب البئر

والشجرات الثلاث الوحيدات كالراهبات

ولدت بلا زفة وبلا قابلة

وسميت باسمي مصادفة

و انتميت إلى عائلة مصادفة

يعيد الشّاعر السّلطة للصّدفة في تحديد "أناه"؛ فالمكان بجانب بئر، والاسم مصادفة، والانتماء العائلي صدفة أيضا. وبهذا تمتلك الصّدفة حرية تكوين "أنا الشّاعر" وتشكيل هويّته الّتي هي في الحقيقة هويّة الإنسان العربي المتشظّي. تمتلك أنا الشّاعر صفات ثبوتيّة (المكان،الاسم،الانتماء العائلي) وهي عناصر تحقق للفرد هويّته وتمكّنه من الانتماء لمجموعة معيّنة هي الكلّ وهو الجزء فيمتلك هاجسها ويقاسمها آلامها وآمالها وطموحاتها؛ فهويّة الشّاعر من هويّة وطنه المسلوب ولعلّ هذا الاستلاب هو ما وشّح النّص بنزعة الاضطراب والخوف والألم الّذي سيطر على نفس الشّاعر من جهة وعلى ذهن القارئ من جهة أخرى، ووفقا لهذا الاضطراب ينقلب طرفا الثّنائية فيصبح الشّاعر درويش هو الأنا الحائرة التي تبحث عن ماهيتها وقارئه هو "الآخر" الذي يبحث بدوره عن "الآخر" الذي يوازي "الأنا" التي يرومها الشّاعر.

3-الهويّة المضطربة:

تعتّم النزعة الاضطرابيّة على فضاء النّص وتؤثّثه بطابع التّوجس والخوف وهو ما نلمسه من حيرة الشّاعر الذي يستمر تائها تتجاذبه اللاّصدفة والصّدفة فيقول[19]:

ومشى الخوف بي ومشيت به

حافيا، ناسيا ذكرياتي الصغيرة عما أريد

من الغد لا وقت للغد

يبدو أنّ الاضطراب الذي أحدثه الخوف الذي يطبع أنا الشّاعر أدخل هذه الأنا حلقة الارتداد والفزع ممّا جعلها تنسى الأمس والذّكريات فتهدّم من سلسلة الزّمن الماضي الذي يعدّ إيذانا بالوجود الفعلي للأنا؛ فالماضي

بما يحمله في جعبته من سمات أساسية لا غنى عنه في تركيب الأنا وبلورة الذّات، وليس يخفى أنّ الماضي وجود وتراث وحضارة وانتماء ولا يمكن بأيّة حال من الأحوال كسره من خطّية الزمن. إنّ أنا الشّاعر لم تعد تريد الغد وهي بذلك تشوه الزمن بعزل الماضي وإقصائه ومحو المستقبل فأين زمنية هذه الأنا؟ إنها تعايش حاضرا قاهرا فرضه الآخر الذي مازال درويش يخفيه ويلزم المتلقي بالبحث عنه.وتجدر الإشارة إلى أنّ الزّمن عنصر من عناصر الهوية؛ إذ يمثل ماضي وحاضر ومستقبل الأنا، واستبعاده يجرّد الأنا من مقوّم من مقوّمات هويتها التي تظل محل فقد بالنسبة لدرويش.

4-تجليات الهوية في وجود الأخر:

يستمر الشّاعر درويش في البحث عن الأنا ويتخطّى حالة السّكون إلى الحركة وذلك من خلال رصده لتجميعيّة متوالية من الدّوال المشحونة بالحركة الدالة على الفزع والصراع والحزن والألم إذ يقول[20]:

أَمشي / أهرولُ / أركضُ / أصعدُ / أنزلُ / أصرخُ / أُسرعُ / أُبطئ / أهوي / أخفُّ / أجفُّ / أسيرُ/ أطيرُ / أرى / لا أرى / أتعثَّرُ/ أَصفرُّ/ أخضرُّ/ أزرقُّ / أنشقُّ / أجهشُ / أعطشُ / أتعبُ / أسغَبُ / أسقطُ / أنهضُ / أركضُ / أنسى / أرى / لا أرى / أتذكَّرُ/ أَسمعُ / أُبصرُ/ أهذي / أُهَلْوِس / أهمسُ / أصرخُ / لا أستطيع / أَئنُّ / أُجنّ / أَضلّ / أقِلُّ / وأكثُرُ/ أسقط / أعلو / وأهبط / أُدْمَى / ويغمى عليّْ/

والملاحظ أنّ الدّوال السّابقة أفعال منتقاة تدلّل على حال الشّاعر وحال أناه وهي في غالبها أفعال انكسار مبنيّة على التّقابل الضّدي وهي أفعال مضارعة تدل على الاستمرارية وتشي بذلك الألم المستمر الذي يطغى على حاضر الشّاعر وهو يمارس رحلة البحث المستمر عن الهويّة التي أحال عليها ضمير الأنا وهيٍ أنا تصارع من أجل البقاء وإثبات الذّات ومحاربة الذوبان في الآخر، ويتجلّى الصّراع في الثّنائيات الآتية:(أصعد / أنزل)،(أرى / لا أرى)،(أتعثر/ أنهض)،(أبطئ/ أسرع.....)-(الصّعود مقابل النّزول، الرؤية مقابل اللارؤية، النهوض مقابل التعثر، الإسراع مقابل الإبطاء)- غير أنّ طرف الصرّاع الثّاني- الذي هو الآخر-غائب عن القارئ ممّا يجعله في حالة تتبّع دائم؛ فيعمد هذا الأخير– القارئ –إلى لعبة التّقصي ومخاتلة تمفصلات النّص واستنطاق معطيات الأنا الّتي قام الشّاعر بتوصيفها مجبرا القارئ على إدراك حقيقة مفهوم الهوية والكشف عن تشكيلاته وتمظهراته إلى حين القبض على "الآخر". ورغم تكتم الشاعر عن إظهار الآخر إلا أنّه يقول[21]:

ومن حسن حظي أن الذئاب اختفت من هناك.

مصادفة/ أو هروبا من الجيش.

وأخيرا تتبدى ملامح(الآخر) مجسّدا في "الذّئاب" و"الجيش"وهما لفظان يشتركان في معنى القوّة والسّيطرة ومن هنا تتضح أهم معالم آخر درويش (الذّئاب والجيش)فهذا(الآخر)يتّسم بالقوة والهيمنة والقهر؛إذن فهو (آخر قاهر) ورغم هذه السّمة الدّلالية –لآخر درويش –إلّا أنّ النّص يحقّق توازنا واستقرارا به؛ فبعد أن كان قلقا مضطربا يطارد "الأنا" في غياب ركن أساسي من أركان تحققها يعرف النّص هدوء وثباتا لتتوازن أنا الشّاعر بوجود الآخر رغم صفته القهرية الّتي تحيل على المستعمر الغاشم الّذي يحتل فلسطين/ الوطن العربي ويطمس معالم الهويّة العربيّة برمّتها.

5-علاقة الهوية بالأرض:

بعد أن ظهر الآخر في خطاب الهويّة الذي أعلنه درويش في قصيدته لاعب نرد يتدرج – هذا الأخير – بالوصف إلى غاية أن يقول[22]:

أحبك خضراء، يا أرض، تفاحة.
تتموج في الضوء والماء، خضراء، ليلك أخضر
فجرك أخضر.

في الأبيات السّابقة تتجلّى ملامح الإفصاح والبوح بعد الكتمان والتّعتيم؛ إذ يتوجه الشّاعر مباشرة بالنّداء إلى الأرض وبتوسّله أسلوب النّداء يؤنسن "درويش" الأرض ليتماهى معها، إنّها الأرض التي يحبّها خضراء، وتتواتر تيمة اللّون الأخضر (ليلك أخضر، فجرك أخضر)دلالة على الأمل في تغيير واقع هذه الأرض، أليست هذه الأرض هي فلسطين المستلبة؟ أليست هذه الأرض هي الهوية التي ترومها الأنا في صراعها مع الآخر؟ أليست الأرض هي مكان الانتماء وزمن العيش والماضي والحاضر والمستقبل؟ كل هذه العناصر مجتمعة تركب محصّلة سؤال الهويّة في المنجز الإبداعي للشّاعر محمود درويش.

تعدّ الأنا الدرويشية معادلا موضوعيا للأنا الفلسطينية/ العربية التي تبحث عن هويّتها في ظّل القهر والاستلاب والتغريب الذي يمارسه الآخر/المستعمر وبذلك يرسل درويش خطابه عبر الكائن اللغوي -قصيدة لاعب نرد -فيرصد للهوية تشكيلات متنوعة وتمظهرات كثيرة أفصح عنها حينا وحجبها حينا آخرا؛ فتأرجحت الأنا بين ملابسات الصّدفة واللاصدفة لتتجلّى العناصر الثّبوتية للهويّة: المكان، الاسم، العائلة والولادة ثم تتمظهر في شكل اضطرابي يترجم حال الذّات العربية وسرعان ما يظهر الآخر لتحدد الذات أناها من خلاله.

إنّ الذات العربية ذات مكسورة ناء بها الواقع وهي في صراع ضد الآخر فخلفية العلاقة بين الذّات العربية والآخر المستعمر مؤسسة على ذهنية التّصادم والصراع وفق معادلة طرفها الأول تحكمه قوة استعمارية تريد فرض هيمنتها وسطوتها بأساليب الرّدع والإذلال، أما طرفها الثّاني فتحكمه قوة روحية مستمدة من التّشبث بالقيم الإنسانية النّبيلة في أبعادها الشّرقية -وهو ما تذهب إليه الباحثة ريم الفوّاز في كتابها "انعكاسات الآخر في الرواية العربية"- وهي أبعاد دينية وإثنية وعقدية وحضارية عملت كل الظّروف على صهرها في بوتقة الانتماء والتّميز عن الآخر والصّراع من أجل الإبقاء على كينونة وديمومة الهويّة ولعل من أهم تلك الأبعاد البعد المؤسس على طبيعة الانتماء الّذي يفرض المكان؛ فالصّراع الذي تخوضه الأنا العربية ينطلق بموجب عقد اسمه الأرض / فلسطين / الوطن العربي.

خاتمة:

وإذ تشارف هذه المقاربة على الختام نخلص إلى القول بأن:

- أنا "درويش" أنا متفردة ظاهريا تتجاذبها الصّدفة واللّاصدفة ولكنها تصنّف ضمن هويّة جمعيّة هي الهويّة العربيّة انتماء ووجودا وكينونة ومصيرا.
- أعاد درويش تشكيل الهويّة العربيّة انطلاقا من أناه الحائرة التائهة في واقع قهري فرضه الآخر المستعمر.
- أنا "درويش " مؤسسة على العناصر الثّبوتية التي تشكل مجتمعة الهوية الإنسانية والعربية خصوصا.

- أنا "درويش " هي الأرض العربية.

- الهويّة العربيّة سؤال قائم في المنجز الإبداعي العربي يجلي من خلاله المثقف العربي طبيعة الهويّة العربيّة ومآلاتها وتشكيلاتها وتمثيلاتها وتمظهراتها في ظلّ معطيات الراهن العربي.

هوامش وإحالات المقال:

*محمود دويش 1941م شاعر فلسطيني من أبرز شعراء المقاومة الفلسطينية، ولد في قرية البروة التي تقع قريبا من عكا. لجأ مع أهله إلى لبنان وهو في السابعة من عمره بعد ان احتل اليهود قرية البروة عام 1948م، وبعد عام عاد إلى فلسطين. دخل إلى السجون الإسرائيلية أكثر من مرة فبين عام 1965م/ 1967 سجن بتهمة النشاط المعادي لإسرائيل وذاع صيته كشخصية عربية نضالية ضد الاحتلال الإسرائيلي، ثم نفي الى خارج وطنه وتنقل بين العواصم العربية والأجنبية واستقر ببيروت التي لم يتركها إلّا في أعقاب الاجتياح الإسرائيلي لها عام 1982م مر عطاء درويش الشعري بعدة بمراحل ففي المرحلة الأولى صدر له ديوان بعنوان: عصافير بلا أجنحة سنة 1960م وفي المرحلة الثانية صدر له ديوان بعنوان أوراق الزيتون 1964، وتراوحت المرحلة الثالثة بين سنتي 1966 و 1970 وفيها أخرج درويش إلى النور أربعة دواوين وهي: عاشق من فلسطين، آخر الليل، العصافير تموت في الخليل، حبيبتي تنهض من نومها أما المرحلة الرابعة فتعد المرحلة المميزة في مساره الإبداعي ويمثلها ديوانه أحبك أو لا أحبك، تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق، أما المرحلة الخامسة فهي مرحلة الغنائية الملحمية والتي ابتدأت بديوان أعراس وامتدت حتى ديوان لمادا تركت الحصان وحيدا.

الهوامش :

1-مصطفى بن تمسك: في التأصيل المفهومي للهوية، ضمن كتاب السؤال عن الهوية في التأسيس ... والنقد.... والمستقبل، منشورات الاختلاف، بيروت، ط1، 2016، ص27.

2-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، دار الكتب العلمية، 2005، ط1، ص293.

3-عبد القاهر الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط1، ص 320.

4-مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، مصر، 1983، ص208.

5-محمد عابد الجابري: مسألة الهوية، العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2006، ص10.

6-محمود سمير منير، العولمة وعالم بلا هوية، دار الحكمة للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2000، ص146.

7-ابن منظور، لسان العرب، ص38.

8-إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، تركيا، د.ت، ص28.

9-عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوفي) ابن الفارض نموذجا)،دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط2، 2009، ص 178.

10-محمد الخباز، صورة الآخر في شعر المتنبي) نقد ثقافي)،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص23.

11-سعد البازغي، مقاربة الآخر، مقاربات أدبية، دار الشروق القاهرة، مصر، ط1، 1999، ص12.

12-ابن منظور، لسان العرب، ص13.

13-إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ص90.

14-صلاح صالح: سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللّغة السردية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003، ص10.

15-محمود درويش: الأعمال الكاملة، ص 27.

16-المصدر نفسه، ص 27.

17-المصدر نفسه، ص 27.

18-المصدر نفسه، ص 27.

19-المصدر نفسه، ص 31.

20-المصدر نفسه، ص 31.

21-المصدر نفسه، ص 31.

22-المصدر نفسه، ص 41.

قائمة المصادروالمراجع:

1-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 2005.

2-إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، تركيا، د.ط، د.ت.

3-مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، 1983.

4-محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، العروبة والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2006.

5-محمود سمير منير، العولمة وعالم بلا هوية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2000.

6-محمد الخباز، صورة الأخر في شعر المتنبي) نقد ثقافي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2009.

7-مصطفى بن تمسك، في التأصيل المفهومي للهوية، السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمستقبل، منشورات الاختلاف، بيروت، ط1، 2016.

8-سعد البازعي، مقاربة الأخر، مقارنات أدبية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1999.

9-عبد القاهر الجرجاني، التعريفات، دار الكتاب العربي، ط1، د.ت.

10-عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوفي، ابن الفارض نموذجا، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط2، 2009.

11-محمود درويش، الأعمال الكاملة، إعداد على مروة، منتدى الإسكندرية.